الغزالى وعلم النفس

للأستاذ حمدى الحسينى

— ١٠ —

السلوك

التقينا بواسطة هذه المجلة الزاهرة مع القراء الكرام تسع مرات تحدثنا خلالها عن شخصية الإمام الجليل حجة الإسلام أبى

الأب إلى النسل و كيف أن الدين الإسلامى قد ألم من قبل بتأثير الوراثة ثم رأينا كيف عبر القرآن عن النطفة بأنها أمشاج فقال تعالى (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا) . .

فالنطفة إن تكن بسيطة شكلا فهى مركبة أصلا وهى خليط من المواد فى تكوينها ، فهذه الحيوانات المنوية وهى ترى متشابهة شكلا ، فإذا بها قد أخرجت بعد تلقيح البويضات أجنة مختلفى الأنواع متباينى الصفات متنوعى الأشكال ، فهذا ذكر وتلك أنثى وهذا أبيض وذاك أسود وهذا جميل وذاك دميم وهذا عاقل وذاك مجنون وهذا مستقيم وذاك مجرم أثيم

فماهذا الذى يغير الأجنة وقد بدأوا متشابهين، وماهذا الذى يفرق الناس وقد كانوا فى مبدإ الخليقة متماثلين ؟ ألا إنه شئ فى النطفة وفى البويضة كمين ، وخبء هو فيها دفين ، ذلك صنع الله رب العالمين الذى خلق النطفة الأمشاج وجعلها فى قرار مكين فتبارك الله أحسن الخالقين

أرأيتم كيف ثبت القرآن الإرث التناسلى من قديم ثم جاء الطب فأيد القرآن بالأدلة والبرهان ؟

وفى فرصة أخرى سنتكلم فى موضوعات الطب والإسلام التى نرى لزاماً علينا أن ننشر بيانها على الناس هدى وإرشاداً

عامر الفوالى

طبيب أول مستشفى رعاية الطفل بالجيزة

حامد محمد الطوسى الغزالى وعن معرفته النفسية التى رأيناها تتلاقى مع قواعد علم النفس الحديث فتتآخى ، وتتقارب فتتجاذب، فظهر من كل هذا صورة واضحة لنفسية هذا الرجل العظيم وصورة أوضح لعقليته الجبارة وتفكيره الدقيق العميق . وقد وعدنا فى مقالنا السابق أن نتحدث هذه المرة عن السلوك فى نظر الغزالى وهو ما يسميه الغزالى بالخلق .

والأخلاق الإنسانية هى هذه الصور الكثيرة المتعددة التى تشبع الرغبات بها نفسها فينشأ عن تعددها الفروق بين الناس والتفاوت فى أقدارهم وقيم أعمالهم. والغزالى — ولاشك — من أكبر علماء السلوك أو (الخلق) الإنسانى وعلى الأخص الخلق الإسلامى بالنسبة لقواعد الدين الحنيف، فبرا بالوعد وحرصاً على الخير نسوق لكم ما يقوله الغزالى فى السلوك اللاشعورى أو ما يسميه هو بالخلق ، وقوله هذا تحديد دقيق للسلوك اللاشعورى سواء كان هذا السلوك غريزيا أم مكتسبا بالعادة. يقول الخلق والخلق عبارتان مستعملتان معاً يقال فلان حسن الخَلق والخُلق أى حسن الظاهر والباطن، ويراد بالخَلق الصورة الظاهرة وبالخلق الصورة الباطنة . وذلك لأن الإنسان مركب من جسد مدرك بالبصر ومن روح مدركة بالبصيرة ولكل واحد منها هيئة وصورة إما قبيحة أو جميلة؛ فالخلق إذاً عبارة عن هيئة فى النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية . فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً . وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التى هى المصدر خلقا سيئاً

هذا ما يقوله الغزالى فى السلوك اللاشعورى وهو قول واضح الجوانب لا غموض فيه ولا إبهام . وهو موافق كل الموافقة لما يقوله علم النفس الحديث من أن الطفل يحس بالفرق الكبير بينه وبين أبيه وإخوته وأقاربه من الرجال فى الطول والضخامة والقدرة فيشعر بضعف أمام قوتهم، وبعجزه بالنسبة إلى قدرتهم، وبحقارته بالقياس إلى عظمتهم ، ثم ينتقل هذا الشعور إلى عقله الباطن فيستقر فيه ويصبح هذا الشعور هو الحاكم المطلق والمتصرف الذى لا ترد إرادته ولا تعصى إشارته . ينتقل الطفل من دور الطفولة إلى بقية أدوار حياته . ولكن ذلك الشعور

بالضعف والعجز والحقارة يظل مستقرا فى عقله الباطن يوجهه لا شعوريا ويصرفه باطنيا فقد تراه وهو فى شيخوخته طفلاً فى سلوكه ينزع فى سبيل الحصول على أهدافه نزوعاً طفليا كالإقدام الشاذ الذى قد يتخذ شكل الاعتداء والتحيز، والإحجام الشاذ الذى هو النكوص والانطواء على النفس وتجاهل المشكلة والتردد والحيرة والذبذبة التى قد تنقلب قلقاً ووسواساً وحصراً نفسيا خبيثاً مما لا يعلم غير الله مداه فى السلوك ومدة بقائه فى النفس حتى تنحل العقدة (عقدة النقص) بأعجوبة فيشعر الشخص بقوته وقدرته وكرامته وينعدس هذا الشعور فى عقله الباطن ويتولى قيادته من جديد فيسيره تسييراً يتناسب مع رجولته وقوته وكرامته . يسيره لا شعوريا كما يقول الغزالى (بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية)

ولنرجع الآن إلى الأمثال التى يضربها الغزالى على صحة قواعده والشواهد التى يقدمها لشرح تلك القواعد وتقريبها للأفكار . يقول :

وإنما قلنا إن الأخلاق هيئة راسخة لأن من يصدر منه بذل المال على الندور ولحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك فى نفسه ثبوت رسوخ . وإنما اشترطنا أن تصدر الأفعال بسهولة ومن غير روية لأن من تكلف بذل المال والسكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال خلقه السخاء والحلم ، فالسلوك الصحيح عند الغزالى هو السلوك اللاشعورى . وبعبارة أقرب إلى الحقيقة هو السلوك الذى يكون ناشئا عن توافق بين العقل الباطن والعقل الواعى بدليل قوله . ليس الخلق عبارة عن الفعل فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل لفقد المال أو لمانع ؛ وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إما لباعث أو لرياء . وليس هو عبارة عن القوة إلى الإمساك والإعطاء بل إلى الضدين واحد. وكل إنسان خلق بالفطرة قادر على الإعطاء والإمساك وذلك لا يوجب خلق البخل ولا السخاء . وليس هو عبارة عن المعرفة فإن المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعاً على وجه واحد . بل هو أى الخلق عبارة عن الهيئة التى تستعد النفس لأن يصدر منها الإمساك أو البذل هو عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة .

ونقارن الآن بين هذه الأقوال التى يقولها الغزالى وأقوال علماء النفس المعاصرين وهى أن الرغبات ليست خيراً ولا شراً فى ذاتها فإن الخير والشر موجود فقط فى ذلك الطريق الخاص الذى يسلكه الفرد لإشباع رغباته

ومن الحق أن نترك الغزالى يقرر الخير والشر فى طريق السلوك لإشباع الرغبات ويضع قيم الأخلاق . وينعت هذه القيم بالحسن والقبح فى نور عقيدته الدينية وآدابه الإسلامية . يقول . إن حسن الصورة الظاهرة لا يتم بحسن العينين دون الأنف بل لا بد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر . فكذلك فى الباطن أربعة أركان لا بد من الحسن فى جميعها حتى يتم حسن الخلق فإذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق وهو قوة العلم وقوة الغضب وقوة الشهوة وقوة العدل . أما قوة العلم فحسنها فى أن تصير بحيث يسهل بها إدراك الفرق بين الصدق والكذب فى الأقوال ، وبين الحق والباطل فى الاعتقادات، وبين الجميل والقبيح فى الأفعال . فإذا حسنت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة . وأما قوة الغضب فحسنها فى أن يصير انقباضها وانبساطها على ما تقتضيه الحكمة . وكذلك الشهوة ، فإن حسنها فى أن تكون تحت إشارة الحكمة . وأما قوة العدل فهى ضبط الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع

ونحن نرى الغزالى قد عرف جيداً أن كثيراً ما تتصارع رغباتنا وتتعارض دوافعنا المختلفة فيكون لدينا نزوع أو رغبة فى أن نسير على نهج معين من الأعمال . وفى نفس الوقت يكون فينا ميل آخر أو رغبة فى أن نسلك طريقا مخالفا للأول كل المخالفة . وقد يكون هذان النوعان من السلوك متناقضين تمام التناقض فنندفع إلى هذا الطريق ثم إلى ذاك إذ لا نستطيع أن نسلك الطريقين معا فينشأ الصراع

عرف الغزالى كل هذا فانبرى يضع القوى النفسية المصارعة فى صفوف معينة ويطلق عليها إذا ما بدت سلوكاً ، نعوتاً من الحسن والقبح والخير والشر والفضيلة والرذيلة يقول :

العقل مثاله مثال الناصح المشير وقوة العدل هى المقدرة ومثالها مثال المنفذ المحض لإشارة العقل ، والغضب هو الذى تنفذ فيه الإشارة ومثاله مثال كلب الصيد فإنه يحتاج إلى أن يؤدب حتى يكون استرساله وتوقفه بحسب الإشارة لا بحسب هيجان